

# السريانية في معلولا وصيدنaya

بِقَلْمِ عِيسَى فَتُوح

دِمْشَق

قال الأستاذ رايشن : «إن اللغة السريانية آخذة بالتراجع أمام العربية لأسباب كثيرة ، وسوف تنقرض بعد جيل أو جيلين ، كما انقرضت من قرئ لبان الشهالي (اهدن وبشري وحصرون) ، إذ ليس في السريانية أغان تعب عن خوالج النفس ، وأول كلمة أو أغنية يسمعها الطفل من أمه أو أبيه في معلولا هي عربية ، كما أن المدارس لا تعلم غير العربية ، والكنائس لا تقيم طقوسها إلا بالعربية أيضا ، بالإضافة إلى فقدان الكثير من كتبها وخطوطاتها السريانية القديمة التي هي دعامة بقاء اللغات».

وقد ذكر المؤرخ حبيب الزيات في كتابه «خزان الكتب في دمشق وضواحيها» «أن كثيراً من الخطوط السريانية دينية أو تاريخية أو أدبية كانت محفوظة فعلاً في دير «مار لانوندوس» في معلولا ، ودير «السيدة» في صيدنaya ، فسطأ عليها رجال الأكليروس الأرثوذكسي وأحرقوها في الأفران ، وأنفلعوا قسماً كبيراً منها ، وما نجا منها نقل فيما بعد إلى المكتبة الأسقفية في بيروود ، وكان هذا الاحراق خسارة لا تعوض».

وقد اعتمد جرجي زيدان في الجزء الرابع من كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» على رواية الزيات المذكورة فقال : «وفي صيدنaya دير قديم المهد تولت عليه نوائب

كانت اللغة السريانية لغة سكان سوريا قبل الفتح الإسلامي الذي أدخل معه اللغة العربية ونشرها ، فتراجع اللغة السريانية وانكشت ، وهجرت شيئاً فشيئاً في المدن ثم في القرى ، إلى أن انقرضت كلية ، لكن لا يزال منها يقايا حتى الآن في ثلات قرى في جبال القلمون هي «بجعة» و«جبعدين» المسلمتان ، و«معلولا» المسيحية ، فقد ظل أهل هذه القرى الثلاث محتفظين باللغة السريانية إلى جانب اللغة العربية ، بسبب ارتفاع قراهم وانعزالها طوال القرون الماضية ، وبعدها عن الطرق العامة ، ونتج عن هذه العزلة صيانة اللغة السريانية ، ولا يزال الآباء يعلمونها للأبناء جيلاً بعد جيل .

لقد لفت هذه اللغة أنظار العلماء والباحثين الأوروبيين ، وخاصة المشغلين منهم باللغات السامية ، فقاموا بزيارة معلولا التي تبعد عن دمشق خمسة وخمسين كيلومتراً ، وتحاط بالجبال الشاهقة ، ودرسو لغتها ، وألقوا الكتب في صرفها ونحوها ومفرداتها وتصوّرها ، كذلك أوفد المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1936 أحد أعضائه هو الأستاذ «رايشن» فكث فيها ستة أشهر متواصلة حتى تعلم لغتها غير المكتوبة ، ودرس شؤونها المختلفة ، وخرج بموقف جمع فيه كل ما يتعلق بجغرافية معلولا ، ولغة أهلها وعاداتهم وتقاليدهم في الأفراح والأتراح .

السريانية ، لم يروا واسطة أعمى ، لابادتها والتخلص منها ، من ايقاد النار فيها خلال أسبوعين.

وحيث مر «نيوهير» بدمشق سنة 1762 قال : «بلغني أنه لا يزال في ولاية الباشا في الشام ، بعض الضياع التي لا يتكلم أهلها إلا السريانية» وقد أراد بذلك صيدنانيا ومعلولا التجاورتين ، ويؤكد هذا الرأي السائح الانكليزي «برانون» الذي مر في مرأة صيدنانيا ومعلولا فقال : «إن اللغة السريانية محفوظة هناك ، يتوارثها الأبناء عن الآباء دون دراسة ، وكانت أسمع مكارينا يتحادثون بهذه اللغة بدلاً من العربية التي تشبهها كثيراً في النطق». فإذا صر أن المعرفة كانت حتى نهاية القرن الثامن عشر تتكلم السريانية ، فكيف بالأحرى جارتها صيدنانيا وهي أقدم منها عهداً ، وأعرق نسباً في الآرامية؟ .

ومن ثبت سريانية صيدنانيا العالم الألماني كارل رايت الذي قال في معرض كلامه : «وفي هذا القسم وحده من سوريا حفظت اللغة السريانية لهجة بلدية في بعض القرى الجبلية ، ومنها صيدنانيا» .

• • •

على الرغم من قرب المسافة بين صيدنانيا ومعلولا ، فقد انقرضت اللغة السريانية كلها في صيدنانيا وولت إلى غير رجعة ، في حين أنها لا تزال مستعملة ومتداولة في معلولا ، تلك القرية الواقعة التي تتشبث بالصخر كعش النسر ، وتدرج بيتهما الصغيرة كالسلم ، وبعضها معاور حفرت في الصخر منذ أقدم العصور ، وكثيراً ما يقصدها الرسامون ليرسموا لوحات من مشاهدها الغريبة العجيبة ، ولا سيما «الفج» العميق . والفج – كما تقول التقاليد – لم يكن هكذا منذ الأزل ، مما ضيقاً يفصل بين جبلين ، ولكن القديسة «تقلا» تلميذة بولس الرسول ، كانت تهرب ذات يوم من أيها الوثنى ، ومن الجنود الذين أرسلهم لقتالها ، فوصلت إلى معلولا ، ولما رأت الجبل الشاهق يقف أمامها ، ويسد عليها طريق النجاة ، رفت يديها إلى السماء وصلت بحرارة ، فانشق الصخر الجبار ، ومرت من الشق – الفج – بسلام ، لذلك ابنت ديراً لها

كثيرة ، وكان في خزانة كتب تعرف بخزانة «دير الشاغورة» نسبة إلى دير بناء يوستينيان في القرن السادس للميلاد ، وهو الآن للأرثوذكس وقد وصف صاحب خزانة الكتب رحلته إلى ذلك الدير ، وما لاقاه من موجبات الأسف لضياع الكتب بالحرق والنهب والإهمال ، وذكر ما يقي منها ، وكلها كتب دينية ، وهكذا يقال في معلولا ، فقد كان في مكتبتها كثير من المخطوطات الفيسية في العربية والسريانية لم يبق منها إلا القليل ، وبعضها قديم جداً...» .

ومهما يكن من أمر ، فإن أهل جبال القلمون كانوا يتكلمون السريانية أو يصلون بها حين تعلموا العربية ، فجمعوا بين اللغتين ، وبقيت منهم بقية إلى أواخر القرن الثامن عشر ... ولو سلمت مخطوطات دير السيدة ورفوفها ، ولم تلفها يد الغباوة والجهل – كما يقول حبيب الزيارات – لأمكننا أن نقف على كثير من نسخ السريانية في صيدنانيا ، وبينهم بعض رهبان الدير ورؤسائه وأحباره . ومن يطالع كتاباتهم وتعليقاتهم التي ترى اليوم على عدة مصاحف سريانية محفوظة في الخزائن الأوروبية ، وكانت موقوفة على كنائس صيدنانيا ، أو مستعملة فيها ، يجد أن كل الأساقفة الذين تابعوا على صيدنانيا حتى أوائل القرن الثامن عشر ، كانوا يعرفون السريانية ، ويكتبون و يصلون بها .

وحيث زار يوسف السمعاني دير صيدنانيا في تشرين الأول سنة 1715 ، موافقاً من قداسة البابا ، للبحث عن الكتب المخطوطة في الشرق ، أعطاه الرهبان بعض المخطوطات السريانية ، ومعظمها في طقسيات الكنيسة الرومية ، وكانت مطروحة – كما يقول الزيارات – في أحدى زوايا الميكل طعمة للصراصير والثع !

ويؤكد الزيارات في كتابه «خبايا الزوايا من تاريخ صيدنانيا» – من هدايا مجلة (المسرة) 1932 – أن الدير كان حتى أوائل القرن التاسع عشر حافلاً بالمخطوطات والأوراق السريانية ، وبينها بكل قديم ونفيس ، ومعظمها من الكتب الدينية التي كانت موقوفة على الكنائس والأديار ، وحيث أراد الوكلاء أن ينفوا عن الدير نسبة

في تلك البقعة الفاتحة، يعتبر بحق أقدم دير في العالم . وتضم أحدى حجرات الدير رفات هذه القديسة . بينما ترشع نقاط ماء بطيئة من السقف الصخري قرباً من القبر . ويعتقد الكثيرون أنه ماء عجائبي . يشفي أصعب أنواع العلل . وأعتقد الأمراض ، كما يعتقد المعلوبون أن القديسة تقا - شفيعة قريتهم - ترد الأذى عنهم برకتها الدائمة .

الكتب المخطوطة الثمينة ، وعدد كبير جداً من الآيقونات التي رسمت في القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد ، لكن أحدها على الأطلاق آيقونة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا الانجيلي البشير في القرن الأول للميلاد ، ونقلت إلى الدير بعد زمن طويل من بنائه في قصة مشهورة ، ويطلق عليها اسم «الشاغورة» أو «الشاوره» ومعناها في السريانية المعروفة أو الدائمة الصيت .

توضع آيقونة الشاغورة الآن في غرفة مظلمة صغيرة تضاء بالشموع والزيت ، ويتدلى من سقفها مصابيح عديدة ملؤها بالزيت ، وفي جدارها الشرقي كوة ذات شبك من الفضة ، علقت فوقه قطع وسلال ذهبية وفضية وصلبان مختلفة الأشكال من تقديم الزوار ، ووراء الشبك المسدود آيقونة العذراء «الشاغورة» ويزعمون أنه يرشح منها زيت يشفي جميع المرضى الذين يقصدونها طالبين العون .

يمثل دير سيدة صيدنaya المركز الثاني في الأهمية بعد القدس من حيث كثرة الزوار للأماكن الدينية في الشرق ، وتزداد شهرته اتساعاً بما تجترجه العذراء من عجائب نحو من يزورونه من جميع الطوائف والأديان للتبرك وطلب العون وتقديم التذكرة في جو عاقد بالإيمان والطهر والقداسة . وروائع البخور المنعشة ، وكان هذا الدير ملجاً لأهل صيدنaya وضواحيها أيام الكوارث والفتنة ، لوعورة مكانه ، وصعوبة المرتفق إليه ، والدخول من بابه الصغير ، حتى لكانه أحدى القلاع المصنعة ، وقد لجأ إليه المسيحيون في الفتنة الطائفية التي حدثت في دمشق سنة 1860 ، وأثناء الثورة السورية الكبرى عام 1925 .

ومن الآثار الباقية في صيدنaya ، كنيسة القديسين بطرس وبولس التي يعود بناؤها إلى عهد الرومان ، وهي كالبرج المربع معقودة بمحاجرة ضخمة جيدة التحت والبناء ، يدخل إليها من باب صغير ، ويصعد إلى سطحها بدرج دائري كاللولب ، وكنيسة «آجيا صوفيا» ، و«مقام مار إلياس» ودير القديس «خرستوفوروس» ودير «مار توما» ودير «مار شرين» وغيرها من الكنائس والأديرة الموجودة في صيدنaya والقمم المجاورة لها .

وفي أعلى القرية دير «مار سركيس» الذي يرتفع حوالي 1800 متر ، ويطل على معلولا كالطود الشامخ . وترجع قبته إلى العهد البيزنطي ، بالإضافة إلى كنيسة القديس «لاونديوس» التي بنيت في القرن الخامس ، ومعابد القديسين سابا وتوما وجاورجيوس ، وقد اندر أكثرها ، وهناك خراب آخر كانت قد ياماً كنائس معروفة بأسماء القديسة بربارة ، والقديس نيكولاوس ، والقديس شرين وكنيسة التوبة ، ومغارف أثرية كثيرة نقش على جدرانها كتابات يونانية ترجع إلى القرن الأول الميلادي . وفي أسفل القرية معبد روماني يسمى «حمام الملكة» يقال أن الوثيين كانوا يجتمعون فيه لمارسة أعمالهم المنكرا ، ولما دعاهم أحد القديسين إلى التوبة والاقلاع عن هذه الأعمال رفضوا فأهلوكهم الله جزاء ما كانوا يفعلون ، ثم أقام المسيحيون كنيسة في المكان نفسه . كل هذه الآثار شواهد ناطقة بما كانت عليه معلولا في الزمن القديم من الأهمية والاتساع .

• • •  
أما صيدنaya فهي كلمة سريانية معناها «سیدتنا» أو صيدنaya ، ومعناها في السريانية أيضاً «أرض أو أماكن للصيده» ، وقد بنيت عام 198 بعد الميلاد ، وأشهر ما فيها ديرها العظيم الذي بني حوالي 547 للميلاد ، على عهد الامبراطور البيزنطي يوستينيان في قصة مشهورة ، وهو اليوم مؤسسة رهبانية أرثوذكسية ، يضم خمسين راهبة ترعاهن رئيسة هي حالياً الأم «كاترين أبو حيدر» ، ويؤمه كل عام آلاف الزوار من مختلف أنحاء العالم ، ولاسيما في الثامن من أيلول عبد مولد السيدة العذراء . أقيم الدير فوق راية عالية تشرف على قرية صيدنaya التي تعلو حوالي 1400 متر ، وفيه مكتبة قيمة تضم مئات

**مصادر بحث السريانية في معلولا  
وصيدنانيا**

- 1) الريف السوري (محافظة دمشق) - الجزء الأول . 3) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها لحبوب الزيات -  
لأحمد وصفي زكريا - مطبعة دار البيان - دمشق مطبعة المعارف - القاهرة ؟ . 1955 .
- 4) تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الرابع) لجرجي زيدان - دار الملال - القاهرة 1957 .
- 2) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنانيا - لحبوب الزيات - المطبعة البوليسية - حریضا (لبنان) 1932 . في سوريا .

